الفصل الثالث

الإمام الغزالى والمتكلّمون

١

يحتل البحث فى نظرية المعرفة مكاناً كبيراً فى العصر الحاضر ، حتى لقد رأى بعض المفكرين أن نظرية المعرفة إنما هى نصف الفلسفة .

وإنه لمن الطبيعى أن يبحث الإنسان فى الوسائل التى تؤدى به إلى الهدف الذى يريده ، ومن هنا كانت أهمية نظرية المعرفة فى الفلسفة الحديثة .

بيد أن البحث فى هذا الجانب أصبح فى العصر الحاضر كأنه هدف لا وسيلة فأصبحت نظرية المعرفة تُدرس لنفسها ، كأنها جزء من الفلسفة .

ومن الواضح أنه من الانحراف عن الطريق الفلسفى المستقيم أن يوجد إنسان يستمر طيلة حياته يبحث فى نظرية المعرفة من جميع أطرافها ويقتصر على ذلك فلا يتخطاه إلى المعرفة نفسها ، ومع ذلك يطلق عليه الباحثون لقب «فيلسوف» .. ومن أجل ذلك أخذ بعض المفكرين يتهكَّمون على بعض دارسى الفلسفة فى العصر الحديث ؛ لأنهم يشغلون أنفسهم بالوسيلة عن الغاية ، أى : يشغلون أنفسهم بنظرية المعرفة ولا يلقون بأنفسهم فى خِضَمِّ المعرفة نفسها يرتشفون منه وينهلون .

* * *

٢

وشغلت نظرية المعرفة الإمام الغزالى ، لقد فكَّر فى وسائل المعرفة ودرسها ، وانتقدها ، وسواء كانت الوسيلة : هى الحِسَّ أو هى العقل ، فإنه قَدَّرَ كُلاًّ حقَّ تقديره ووضعه فى مكانه المناسب له.. وسنتحدث عن ذلك حينما نتحدث عن موقفه من الفلسفة .

وشغل نفسه بنظرية المعرفة من حيث الاتجاهات والطرق والسُّبُل التي سارت فيها طوائف مختلفة من الباحثين فوصلوا إلى نتائج مختلفة تتفق أحياناً وتختلف وتتعارض فى كثير من الأحايين .

وبدأ بحثه فى هذا الجانب بحصر الطالبين للحق السالكين سبيله سواء كانوا سائرين على الطريق الصحيح أم متنكِّبين سَوَاءَ الصِّراط .

فوجدهم لا يعدون أربعَ فِرَق :

١ - **المتكلِّمون** : وهم يدَّعون أنهم أهل الرأى والنظر .

٢ - **الباطنية** : وهم يزعمون أنهم أصحاب التعليم، والمخصوصون بالاقتباس من الإمام المعصوم .

٣ - **الفلاسفة** : وهم يزعمون أنهم أهل المنطق والبرهان .

٤ - **الصوفية** : وهم يدَّعون أنهم خواص الحضرة ، وأهل المشاهدة والمكاشفة[1] .

وهذا الحصر « للسالكين سُبُل طلب الحق» أوسع مما تبحث فيه الفلسفة الحديثة ؛ إذ إن الفلسفة الحديثة تهمل إهمالاً يكاد يكون تامًّا طريقة المتكلمين ، وتهمل أيضاً إهمالاً يكاد يكون تامًّا هؤلاء الذين يزعمون أنهم «أصحاب التعليم ومن المخصوصين بالاقتباس من الإمام المعصوم » .

ويبدأ الإمام الغزالى - بعد هذا الحصر - بالبحث فى عمق هذه الطرق واستقصاء ما عندها مبتدئاً بعلم الكلام .

وعلم الكلام ، الذى كان على عهد الإمام الغزالى ، هو علم الكلام الذى ندرسه الآن ، فإذا تحدَّث الإمام الغزالى عنه فليس ذلك الحديث مختصًّا بالفترة التى عاش فيها الإمام الغزالى ، وإنما هو يصل إلى العصر الحاضر ، وإلى هذا النهج من الدراسة الموجودة فى كتب علم الكلام المتداولة الآن .

وإذا تحدَّث عنه الإمام الغزالى فإنما يتحدث حديث الواثق الخبير ؛ فقد حصَّل وطالع كتب المحقِّقين فيه وصنَّف فيه ما أراده الله أن يصنِّف ، ثم كان له فى النهاية رأيه الشخصى .

---

(١) انظر : « المنقذ من الضلال » للإمام الغزالى - تحقيق وتعليق الدكتور عبد الحليم محمود .

وهذا الرأى الشخصى رأى جرىء حاسم يتفق حقيقةً مع الوضع الإسلامى الصحيح ، ولكن الظروف أوجدت الإمام الغزالى فى بيئة كان لعلم الكلام فيها - على ما هو عليه - قداسته واحترامه ، فحاول الإمام الغزالى أن يعلن رأيه بأساليب مختلفة وفى أنماط متعددة ، منها المُجامِل الرفيق الذى لا يرضى كل الرضا ولكنه يتسامح فى أسلوبه ويجامل فى تعبيراته ويعطف ويشفق ، ومع ذلك يتبين فى وضوح أن الوضع خطأ .. وفى أحيان أخرى تضيق نفسه بالوضع الخاطئ فيغضب ويثور ويحسم الأمر فى أسلوبٍ قويٍّ ، وفى حِدَّةٍ ما كان الإنسان يتوقعها من صاحب «الاقتصاد فى الاعتقاد» .

ومن أجل أن يكون رأى الغزالى مقنعاً ، ومن أجل أن يأخذ رأيه المكانة التى يريدها والذيوع والانتشار الذى يطمح إليه أخذ يستشهد بآراء أئمة السَّلَف فى علم الكلام كالإمام مالك والإمام الشافعى والإمام أحمد بن حنبل وغيرهم من السَّلَف الصالح الذين نؤمن بسعة علمهم وبإخلاصهم وباتِّباعهم للنهج الدينى الصحيح .

والآن نذكر رأيه فى صورته الحاسمة : إنه يتحدث عن علم الكلام فى كتابه النفيس « إحياء علوم الدين » فيقول : « وأما منفعته فقد يُظَنُّ أن فائدته كشف الحقائق ومعرفتها على ما هى عليه ، وهيهات ، فليس فى الكلام وفاء لهذا المطلب الشريف . ولعل التخبيط والتضليل فيه أكثر من الكشف والتعريف . هذا إذا سمعته من محدِّث أو حشوى ربما خطر ببالك أن الناس أعداءُ ما جَهِلُوا. فاسمعْ هذا ممن خَبَرَ الكلامَ ثم قلاه بعد حقيقة الخبرة وبعد التغلغل فيه إلى منتهى درجة المتكلِّمين . وجاوز ذلك إلى التعمُّق فى علوم أُخَر تناسب نوع الكلام وتحقَّق أن الطريق إلى حقائق المعرفة من هذا الوجه مسدود» (١).

ويرى الإمام أن المتكلِّم لا يزيد على العامِّىِّ إلا فى صنعة الكلام، ولأجله سُمِّيت صناعته كلاماً .

أما إذا تساءلت عن إيمان المتكلِّمين فإن إيمانهم « ممزوج بنوع استدلال ودرجته قريبة من درجة إيمان العَوَامِّ » (٢).

(١ ، ٢) إحياء علوم الدين للغزالى ، ج ١ .

ويروى الإمام الغزالى أن « جميع أهل الحديث من السَّلَف » ذهبوا إلى تحريم الكلام ، وإلى التحريم أيضاً « ذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان » .. وسيأتى توضيح رأيهم .

هذا الاتجاه الذى سار فيه الإمام الغزالى إنما هو اتجاه « الصوفية » على وجه العموم وهو - فيما نرى - الرأى الصحيح الذى انتهى إليه الإمام الغزالى بعد تجربة ممحِّصة وخبرة واعية .

٣

نصوص

هذه النصوص مأخوذة فى قسمها الأول من كتاب الإمام السيوطى « صون المنطق والكلام عن فَنَّيِ المنطق والكلام » ، ونحن نتفق مع الإمام السيوطى اتفاقاً كاملاً فى وجهة نظره فى هذا الكتاب .

والقسم الثانى من هذه النصوص مأخوذ من كتاب « إحياء علوم الدين » لا على أنه رأى الإمام الغزالى ، وإنما على أن الإمام الغزالى جامعٌ لمختلف الآراء فى موضوع علم الكلام ، فأخذنا منه وجهة نظر خاصة ، أخذناها على اعتبار أن دور الإمام الغزالى إنما هو دور المؤرخ الناقل ليس إلاَّ .

القسم الأول :

قال رسول الله ﷺ : « **لا تزال طائفةٌ من أُمَّتى ظاهرين على الحق لا يضرُّهم مَنْ خذلهم حتى يأتىَ أَمْرُ الله** » .

وأخرج الهروى عن معاوية أنه قام فقال : « **أما بعد ، فإنه بلغنى أن رجالاً منكم يتحدثون بأحاديث ليست فى كتاب الله ولا تُعرف عن رسول الله ﷺ ، أولئك جُهَّالكم** » .

وأخرج الهروى عن عائشة قالت : « **كان رسول الله ﷺ إذا لم يَعْلَمِ الشىء لم يقل فيه برأيه ولم يتكلَّفه** » .

وأخرج الهروى عن سهل بن حنيف قال : « **يا أيها الناس اتَّهِمُوا رأيكم ؛**

فلقد رأيتنا مع رسول الله ﷺ يوم أبى جندل ، ولو نستطيع أن نردَّ على رسول الله ﷺ أَمْرَهُ لرددناه » [الحديث أخرجه البخارى] .

وأخرج الهروى عن عمر بن الخطاب قال : « يا أيها الناس اتَّهِمُوا الرأى على الدين ؛ فلقد رأيتنى أردُّ أمرَ رسول الله ﷺ برأيى اجتهاداً، واللهِ ما آلو عن الحق ، وذلك يوم أبى جندل » .

وأخرج الهروى عن ابن عباس قال : « إياكم والرأى فإن اللهَ رَدَّ على الملائكة الرأى ، قال : إنى أعلم ما لا تعلمون ... وقال لنبيه ﷺ : ﴿ لِتحكمَ بينَ الناسِ بِما أراكَ اللهُ ﴾[1] ، ولم يقل : بما رأيت » .

وقال شيخ الإسلام إسماعيل الهروى ، فى باب ذَمِّ اتِّباع مُتَشَابِهِ القرآن والجدال به :

عن عائشة قالت : « تَلَا رسولُ الله ﷺ هذه الآية : ﴿ هُوَ الَّذِى أَنزلَ عليكَ الكتابَ ﴾[2] فقال : إذا رأيتم الذين يَتَّبعون ما تَشَابَهَ منه ، فأولئك الذين سَمَّى الله ؛ فاحذروهم » .

وأخرج عن ابن عباس فى قوله تعالى : ﴿ فأمَّا الذينَ فى قُلوبِهم زَيغٌ ﴾[3] ، قال : « هم أصحاب الخصومات والمِرَاء فى دين الله ».

وأخرج عن أُبَىٍّ ، قال : « ما استبانَ لك فاعملْ به ، وانتفعْ به ، وما شُبِّهَ عليك فآمِنْ به وَكِلْهُ إلى عالمه » .

وأخرج عن سعيد بن المسيِّب قال : « قام عمر بن الخطاب فى الناس فقال : أيها الناس: أَلَا إن أصحاب الرأى أعداء السُّنَّة أعيتهم الأحاديث أن يحفظوها وتَفلَّتَ منهم أن يعوها فعاندوا السُّنَن برأيهم فَضَلُّوا وأَضَلُّوا كثيراً ، والذى نفس عمر بيده ما قبضَ الله نبيه ، ولا رفع الوحى عنهم ، حتى أغناهم عن الرأى ، ولو كان الدِّين يُؤخذ بالرأى ؛ لكان أسفلُ الخُفِّ أحقَّ بالمسح من ظاهره ؛ فإياكم وإياهم ، ثم إياكم وإياهم » .

---

(١) من الآية ١٠٥ من سورة النساء .

(٢ ، ٣) من الآية ٧ من سورة آل عمران .

وأخرج الهروى عن هشام بن عبد الملك أنه قال لبنيه : « إياكم وأصحابَ الكلام ؛ فإنَّ أمرهم لا يَؤُولُ إلى الرشاد » .

وأخرج الهروى عن مالك قال : « إياكم والبِدَع . قيل : يا أبا عبد الله ، وما البِدَع ؟ قال : أهل البِدَع الذين يتكلمون فى أسماء الله وصفاته وكلامه وعلمه وقدرته ، ولا يسكتون عما سكت عنه الصحابة والتابعون لهم بإحسان » .

وأخرج عن مالك قال : « مَنْ طَلَبَ الدِّينَ بالكلام تَزَنْدَقَ » .

وأخرج عن عبد الرحمن بن مهدى قال : « دخلتُ على مالك وعنده رجل يسأله عن القرآن فقال : لعلك من أصحاب عمرو بن عبيد ، لعن الله عَمْراً فإنه ابتدع هذه البِدَع من الكلام . ولو كان الكلام علماً لَتَكَلَّمَ فيه الصحابة والتابعون كما تكلموا فى الأحكام والشرائع ، ولكنه باطلٌ يدل على باطل » .

وعن يونس بن عبد الأعلى قال : «سمعتُ الشافعى يقول : إذا سمعتَ الرجل يقول : الاسم غيرُ المسمَّى والشىء غيرُ الشىء ؛ فاشهدْ عليه بالزندقة ».

وقيل لأبى حنيفة : ما تقول فيما أحدث الناس من الكلام فى الأعراض والأجسام ؟ فقال : « مقالات الفلاسفة . عليك بالأثر وطريقة السلف ، وإياك وكلَّ مُحْدَثَةٍ فإنها بِدْعَةٌ » .

وعن الأوزاعى قال : «عليك بآثار السلف ، وإياك وآراء الرجال ، وإن زخرفوها بالقول » .

وأخرج عن عبد الله بن داود الخريبى قال : «سألتُ سفيان الثورى عن الكلام، فقال : « دَعِ الباطلَ ، أينَ أنتَ من الحقِّ ؟! اتَّبِعِ السُّنَّةَ ودَعِ الباطلَ » .

وأخرج عن أحمد بن مهدى قال : « سألتُ أبا جعفر النفيلى عن الخوض فى الكلام ، فقال : سُئل الأوزاعى عنه فقال : اجتنبْ علماً إذا بلغتَ فيه المُنتهَى نسبوك للزندقة ، عليك بالاقتداء والتقليد » .

وأخرج عن أبى يوسف القاضى قال : « مَنْ طَلَبَ الدِّينَ بالكلام تَزَنْدَقَ » .

وأخرج عن أبى يوسف ، قال : « **العلم بالخصومة والكلام جهلٌ، والجهل بالخصومة والكلام علمٌ** » .

وأخرج عن محمد بن الحسن صاحب أبى حنيفة : « **لعن الله عمرو بن عبيد ؛ فإنه فتح للناس الطريق إلى الكلام فيما لا يعنيهم من الكلام** » . قال : « **وكان أبو حنيفة يحثُّنا على الفقه وينهانا عن الكلام** » .

وأخرج عن أبى القاسم عثمان بن سعيد الأنماطى ، قال : «**سمعتُ المزنى يقول: كنت أنظر فى الكلام قبل أن يُقدم الشافعى ، فلما قدم الشافعى أتيته فسألته عن مسألة فى الكلام ، فقال لى : تدرى أين أنت ؟ قلت : نعم أنا فى المسجد الجامع بالفسطاط ، فقال لى : أنت فى تاران ؟ . قال أبو القاسم : وتاران موضع فى بحر القلزم لا تكاد تَسْلَمُ منه سفينةٌ . ثم ألقى علىَّ مسألةً من الفقه ، فأجبتُ بشىء ، فأدخل شيئاً أفسد جوابى ، فأجبتُ بغير ذلك ، فأدخل شيئاً أفسد جوابى ، فجعلت كلما أجبتُ بشىء أفسده ، ثم قال لى : هذا الفقه - الذى فيه الكتاب والسُّنَّة وأقاويل الناس - يدخله مثل هذا ، فكيف الكلام فى رب العالمين، الذى الزلل فيه كفر ؟! فتركتُ الكلام وأقبلتُ على الفقه** » .

وأخرج من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل قال : «**سمعتُ محمد بن داود قال: لم يُحفظ فى دهر الشافعى كله أنه تكلَّم فى شىء من الأهواء ولا نُسِبَ إليه ، ولا عُرِفَ به ، مع بغضه لأهل الكلام والبدع** » .

وأخرج من طريق عبد الله بن أحمد بن حنبل عن أبيه ، قال : «**كان الشافعى إذا ثبت عنده الخبر قَلَّده ، وخير خصلة كانت فيه أنه لم يكن يشتهى الكلام ، إنما هَمُّهُ الفقه** » .

وأخرج عن المزنى أن رجلاً سأله عن شىء من الكلام فقال : «**إنى أكره هذا، بل أنهى عنه كما نهى عنه الشافعى** » .

وأخرج من طريق أبى داود وأبى ثور قالا : « **سمعنا الشافعى يقول : ما من أحدٍ ارتدى بالكلام فأَفْلَحَ** » .

وأخرج من طريق الحسين بن إسماعيل المحاملى قال : قال المزنى: «**سألتُ الشافعى عن مسألة من الكلام ، فقال : سلنى عن شىء إذا أخطأتُ فيه قلتَ: أخطأتَ ، ولا تسألنى عن شىء إذا أخطأتُ فيه قلتَ : كفرتَ** » .

وأخرج عن محمد بن عبد الله بن عبد الحكم قال : « **قال لى الشافعى : يا محمد إنْ سألك رجلٌ عن شىء من الكلام ؛ فلا تجبه ؛ فإنه إن سألك عن دية ، فقلتَ : درهماً أو دانقاً ؛ قال لك : أخطأتَ ، وإن سألك عن شىء من الكلام فزللتَ ؛ قال لك : كفرتَ** » .

وأخرج عن الربيع بن سليمان قال : « **سمعتُ الشافعى يقول : المِرَاء فى الدين يُقسِّى القلب ويُورث الضغائن** » .

وأخرج عن الربيع قال : « **قال لى الشافعى : يا ربيع ، اقبلْ منِّى ثلاثة أشياء ، لا تَخُضْ فى أصحاب رسول الله ﷺ ؛ فإن خصمك النبى ﷺ يوم القيامة ، ولا تشتغلْ بالكلام ؛ فإنى قد اطَّلعتُ من أهل الكلام على التعطيل ، ولا تشتغلْ بالنجوم ؛ فإنه يجرُّ إلى التعطيل** » .

وأخرج عن محمد بن عبد العزيز الأشعرى ، صاحب الشافعى قال : « **قال الشافعى : مذهبى فى أهل الكلام تقنيعُ رؤوسهم بالسياط وتشريدهم من البلاد**».

وأخرج عن الكرابيسى قال : « **قال الشافعى : حكمى فى أهل الكلام حكم عمر فى صبيغ** » .

وأخرج عن أبى ثور والكرابيسى والزعفرانى قالوا : « **سمعنا الشافعى يقول: حكمى فى أهل الكلام أن يُضربوا بالجريد ويُحملوا على الإبل ويُطاف بهم فى العشائر والقبائل ويُنادَى عليهم : هذا جزاء مَنْ تركَ الكتاب والسُّنَّة وأقبلَ على الكلام** » .

وعن أبى ثور قال : « **قلتُ للشافعى : ضَعْ فى الكلام شيئاً ، فقال : من ارتدى بالكلام لم يُفلح** » .

وأخرج من طريق ابن خزيمة : « **سمعتُ يونس بن عبد الأعلى قال : قال الشافعى : لأنْ يبتلى الله المرء بما نهى عنه خَلَا الشِّركِ خيرٌ من أن يبتليه بالكلام** ».

وأخرج عن الزعفرانى قال : «كان الشافعى يعتمُّ بعمامة كبيرة كأنه أعرابى وبيده هراوة ، وكان أدرب الناس لساناً ، وكان إذا خِيضَ فى مجلسه بالكلام نهى عنه ، وقال : لسنا بأصحاب كلام » .

وأخرج عن أحمد بن الوزير القاضى قال : « قلتُ لأبى عمر الضرير : الرجل يتعلم شيئاً من الكلام يردُّ به على أهل الجهل ، فقال : الكلام كله جهل ، وإنك كلما كنتَ بالجهل أعلم ؛ كنتَ بالعلم أجهل ».

وعن عثمان بن سعيد الدارمى قال : « لا نُكيِّفُ هذه الصفات ، ولا نُكذِّبُ بها، ولا نُفسِّرها » .

ولقد ذكر يونس بن عبد الأعلى عن الشافعى أنه قال : « ما من ذنب يلقى اللهَ به عبدٌ - بعد الشِّرك بالله - أعظم من أن يلقاه بهذا الكلام . قال : فقلتُ له : فإن صاحبنا الليث بن سعد كان يقول : لو رأيتَ رجلاً من أهل الكلام يمشى على الماء ؛ فلا تركنْ إليه . فقال الشافعى : لقد قَصَّرَ . إن رأيته يمشى فى الهواء ؛ فلا تركنْ إليه » .

وقال يونس بن عبد الأعلى ، عن الشافعى ، قال : « مذهبى فى أهل الكلام مذهب عمر فى صبيغ : تُقنَّعُ رؤوسهم بالسياط ويُسيَّرون من البلاد » .

وأخرج عن جعفر الفرعانى قال : سمعت الجنيد بن محمد يقول:

«أقل ما فى الكلام سقوط هيبة الربِّ من القلب - والقلب إذا عرى من الهيبة بالله عرى من الإيمان - » .

« ثم هو نفسه ﷺ قد بُعث إلى جميع أهل الأديان فما جادلهم إلا بما تُلى عليهم من التنزيل ، ولو شاء كلَّمهم بالمقاييس ودقيق الكلام . ولو كان ذلك هدى كان أولى به وعليه أقوى ، فلم تقم عليهم الحُجَّة إلا بالتنزيل ، وضربَ عن جدلهم بالدقائق وعلمَ أن ذلك رِضاً ومحبة لربه ؛ فتركُ الجدل والخصومات من السُّنَّة » .

«ما يؤمِّننى أن أُقيم الحُجَّة ببعض التأويل أو القياس أرى أنه أَهْدَى ، وهو عند الله كذبٌ عليه . وقد تبين لى ذلك فيما مضى من عمرى ، قدكنتُ أقول القول ثم يتبين لى أنه خطأ ؛ فأرجع عنه » .

« وما من كلام نسمعه لفرقة منهم ، إلا ولخصومهم عليه كلام يوازيه أو يقاربه ؛ فكل بكل معارض وبعض ببعض مقابل ، وإنما يكون تقدُّم الواحد منهم وفلجه على خصمه بقدر حظه من البيان وحذقه فى صنعة الجدل والكلام ، وأكثر ما يظهر به بعضهم على بعض إنما هو إلزام من طريق الجدل على أصول مؤصَّلة، ومناقضات على مقالات حفظوها عليهم ، فهم يطالبونهم بعودها وطردها ، فمن تقاعد عن شىء منها سَمَّوه من طريق الجدل منقطعاً وجعلوه مبطلاً ، وحكموا بالفلج لخصمه عليه » .

« والجدل لا يبين به حَقٌّ ، ولا تقوم به حُجَّةٌ ، وقد يكون الخصمان على مقالتين مختلفتين ، كلتاهما باطلة ويكون الحق فى ثالثة غيرهما ، فمناقضة أحدهما صاحبه غير مصحِّح مذهبه وإن كان مفسداً به قول خصمه لأنهما مجتمعان معاً فى الخطأ مشتركان فيه كقول الشاعر فيهم :

حُجَجٌ تهافتُ كالزُّجاجِ تَخالُها حَـقًّا وكـلٌّ كاسـرٌ مكسـورُ

وإنما كان الأمر كذلك لأن واحداً من الفريقين لا يعتمد فى مقالته التى ينصرها أصلاً صحيحاً ، وإنما هى أوضاع وآراء تتكافأ وتتقابل ؛ فيكثر المقال ويدوم الاختلاف ، ويقلُّ الصواب .

قال الله تعالى: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلافًا كَثِيرًا﴾(١) . فأخبر سبحانه أن ما كثر فيه الاختلاف فإنه ليس من عنده ؛ وهذا من أدلِّ الدليل على أن مذاهب المتكلمين فاسدة لكثرة ما يوجد فيها من الاختلاف المُفضى بهم إلى التكفير والتضليل ، وذلك صفة الباطل الذى أخبر الله سبحانه عنه ، ثم قال فى صفة الحق : ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾ » (٢) .

---

(١) سورة النساء : ٨٢ .

(٢) كلام أبى أحمد بن محمد الخطابى فى كتابه « الغنية عن الكلام » . والآية رقم ١٨ من سورة الأنبياء .

القسم الثانى :

ونأتى الآن إلى ما ذكره الإمام الغزالى فى كتابه « إحياء علوم الدين » ، ط . دار الشعب جـ١ ص١٦٣ وما بعدها ، إنه يقول :

« فإن قلت: تعلُّم الجدل والكلام مذموم كتعلُّم النجوم أم هو مباح أم مندوب إليه ؟ فاعلم أن للناس فى هذا غُلُوًّا وإسرافاً فى أطراف : فمن قائل إنه بدعة وحرام وإن العبد إن لقى الله عز وجل بكل ذنب سوى الشرك ، خير له من أن يلقاه بالكلام . ومن قائل إنه واجب وفرض إما على الكفاية أو على الأعيان ، وإنه أفضل الأعمال ، وأعلى القُربات ، فإنه تحقيق لعلم التوحيد ، ونضال عن دين الله تعالى . وإلى التحريم ذهب الشافعى ومالك وأحمد بن حنبل وسفيان وجميع أهل الحديث من السلف » .

قال ابن عبد الأعلى - رحمه الله - : **«سمعتُ الشافعى - رضى الله عنه - يومَ نَاظَرَ حفصاً الفرد ، وكان من متكلِّمى المعتزلة ، يقول : لأن يلقى الله عز وجل العبد بكل ذنب ما خلا الشرك بالله خيرٌ له من أن يلقاه بشىء من علم الكلام .**

ولقد سمعتُ من حفص كلاماً لا أقدر أن أحكيه » .

وقال أيضاً : **« قد اطلعتُ من أهل الكلام على شىء ما ظننته قَطُّ؛ ولأن يُبتلى العبد بكل ما نهى الله عنه ما عدا الشرك خيرٌ له من أن ينظر فى الكلام » .**

وحكى الكرابيسى أن الشافعى - رضى الله عنه - سئل عن شىء من الكلام فغضب وقال : **«سَلْ عن هذا حفصاً الفرد وأصحابه ، أخزاهم الله » .**

ولما مرض الشافعى - رضى الله عنه - دخل عليه حفص فقال له : من أنا ؟

فقال : **«حفص الفرد .. لا حفظك الله ورعاك حتى تتوب مما أنت فيه ».**

وقال أيضاً : **« لو علم الناس ما فى الكلام من الأهواء ؛ لفرُّوا منه فرارهم من الأسد » .**

وقال أيضاً : « **إذا سمعتَ الرجل يقول : الاسم هو المسمَّى أو غير المسمَّى؛ فاشهدْ بأنه من أهل الكلام ولا دين له** » .

وقال الزعفرانى : « **قال الشافعى : حكمى فى أصحاب الكلام أن يُضربوا بالجريد ويطاف بهم فى القبائل والعشائر ويقال: هذا جزاء من ترك الكتاب والسُّنَّة وأخذ فى الكلام** » .

وقال أحمد بن حنبل : « **لا يُفلح صاحب الكلام أبداً ، ولا تكاد ترى أحداً نظر فى الكلام إلا وفى قلبه دَغَلٌ** ». وبالغ فى ذمه حتى هجر الحارث المحاسبى مع زهده وورعه بسبب تصنيفه كتاباً فى الرد على المبتدعة ، وقال له :

«**ويحك ، ألستَ تحكى بدعتهم أولاً ثم تردُّ عليهم ؟ ألستَ تحملُ الناس بتصنيفك على مطالعة البدعة والتفكر فى تلك الشبهات ؟ فيدعوهم ذلك إلى الرأى والبحث؟!**» .

وقال أحمد - رحمه الله - : «**علماء الكلام زنادقة** » .

وقال مالك - رحمه الله - :

«**أرأيتَ إن جاءه من هو أجدل منه ؟ أَيَدَعُ دينه كل يوم لدين جديد؟!**» .. يعنى أن أقوال المتجادلين تتفاوت.

وقال مالك - رحمه الله - أيضاً :

« **لا تجوز شهادة أهل البدع والأهواء** » . فقال بعض أصحابه فى تأويله إنه أراد بأهل الأهواء أهل الكلام على أى مذهب كانوا .

وقال أبو يوسف : « **مَنْ طلبَ العلمَ بالكلام تَزندق** » .

وقال الحسن :

«**لا تجادلوا أهل الأهواء ولا تجالسوهم ولا تسمعوا منهم** » .

وقد اتفق أهل الحديث من السلف على هذا ، ولا ينحصر ما نُقل عنهم من التشديدات فيه ، وقالوا : ما سكت عنه الصحابة - مع أنهم أعرف بالحقائق

وأفصح بترتيب الألفاظ من غيرهم - إلا لعلمهم بما يتولَّد منه من الشر ؛ ولذلك قال النبى ﷺ : «**هَلَكَ المتنطِّعون ،هَلَكَ المتنطِّعون**»[1].. (**أى : المتعمِّقون فى البحث والاستقصاء جدلاً**) .

واحتجوا - أيضاً - بأن ذلك لو كان من الدين ؛ لكان ذلك أهم ما يأمر به رسول الله ﷺ ويعلِّم طريقه ويثنى عليه وعلى أربابه فقد علَّمهم الاستنجاء [2] وندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم[3]، ونهاهم عن الكلام فى القَدَر وقال : (**أَمْسِكُوا عن القَدَر**) .

وعلى هذا استمر الصحابة - رضى الله عنهم - فالزيادة على الأستاذ طغيان وظلم ، وهم الأساتذة والقدوة ، ونحن الأتباع والتلامذة . .

وقد ذكر الإمام الغزالى بعد ذلك رأى الفريق المعارض لهذا ورأيه الشخصى، ولكننا نكتفى هنا بأن نذكر رأى الأئمة الذين نقتدى بهم فى عبادتنا ؛ ورأى المحدِّثين .

إننا مع هؤلاء ، ومهما قيل من آراء أخرى فإننا نكتفى برأى هؤلاء .. ونعتز بأن نكون فى صف الشافعى ، ومالك ، وأحمد بن حنبل ، وسفيان الثورى ، وجميع المحدِّثين.

* * *

(١) حديث « هَلَكَ المتنطِّعون » : رواه مسلم من حديث ابن مسعود .

(٢) حديث « أن النبى ﷺ علَّمهم الاستنجاء » : رواه مسلم من حديث سلمان الفارسى .

(٣) حديث « ندبهم إلى علم الفرائض وأثنى عليهم » : رواه ابن ماجه من حديث أبى هريرة « تعلَّموا الفرائض وعلِّموها الناس » ... الحديث . وللترمذى من حديث أنس : « وأفرضهم زيد بن ثابت » .